الأمراض والأوبئة وطرق العلاج في مصر في العصر العثماني

د. خالد أبو الروس(*)

- **ملخص:**

ظلت الأمراض والأوبئة محط أنظار الجميع منذ فجر التاريخ لأنها جزء من حياة وتاريخ الإنسانية، ودائما ما تشيع فى المناطق التي تعانى الفقر وسوء التغذية ونقص الخدمات. وفى مصر أثناء الحقبه العثمانية انتشرت العديد من الامراض والأوبئة مثل الطاعون وأمراض العيون نتيجة سوء التغذية والجفاف والتلوث، الأمر الذى دفع الإدارة العثمانية من جانب، والأهالي من جانب آخر لمواجهة هذه الخطر وتقديم طرق العلاج المناسبة والخدمات الطبية من خلال المؤسسات العلاجية يأتى على رأسها البيمارستان المنصورى الذي استقبل داخل أقسامه المختلفة جميع انواع المرضى كل فى حجرته الخاصه به حسب نوع المرض، بل خصص أيضا قسم داخل أروقته بالمرضى الذين يعانون الجنون. وجدير بالذكر أن البحث قد تعرض لجانب مهم، للعلاج بعيدا عن طرق العلاج المعروفة والأدوية نعنى الطب الوقائي بأنواعه المختلفة من عزل وحجر صحى، واستخدام الندى وفيضان النيل والعرق والرشح للوقاية من مرض الطاعون الذى يفتك بمصر خاصة فى شهر يونيو. كذلك تعرض البحث للطب الشعبى السائد منذ زمن فى مجتمعنا المصرى كموروث يعبر عن ثقافه المجتمع فى بداياته الأولى.

الكلمات المفتاحية: أمراض، أوبئة، علاج، مستشفيات، مرضى، العصر العثماني

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

Diseases, epidemics, and treatment methods in Egypt in the Ottoman era

Dr. Khaled Abou Alroos

- **Abstract**

Diseases and epidemics have been the focus of everyone's attention since the dawn of history because they are part of the life and history of humanity, and they are always common in areas that suffer from poverty, malnutrition, and lack of services. In Egypt during the Ottoman era, many diseases and epidemics spread, such as the plague and eye diseases, as a result of malnutrition, dehydration, and pollution, which prompted the Ottoman administration on the one hand, and the people on the other hand, to confront this danger and provide appropriate treatment methods and medical services through treatment institutions, led by the Bimaristan. Al-Mansouri received all types of patients within his various departments, each in his own room according to the type of illness. He also designated a section within his corridors for patients suffering from insanity. It is worth noting that the research has dealt with an important aspect of treatment, apart from known treatment methods and medications. We mean preventive medicine in its various types, such as isolation and quarantine, and the use of dew, Nile floods, sweat, and runny nose to prevent the plague disease that ravages Egypt, especially in the month of June. The research also examined the popular medicine that has been prevalent in our Egyptian society for a long time as an inheritance that expresses the culture of society in its early beginnings.

Keywords: Diseases, epidemics, treatment, hospitals, patients, Ottoman era

- **مقدمة:**

تعد الأمراض والأوبئة متلازمة مع ظهور الإنسان منذ فجر التاريخ الإنساني على الأرض، فلا ترتبط الأمراض بفترة معينة بعينها رغم أنها قد تلازم منطقة بعينها، فنقول المنطقة الإستوائية تنتشر بها الكوليرا مثلاً. أو أن هناك تلازم بين سوء التغذية وانتشار الأمراض والأوبئة بين السكان في مناطق التغذية السيئة وما ينجم عنها من نقص المناعة، فالمناطق الفقيرة التي تعاني نقص الخدمات وسوء التغذية تعد مناخاً رطباً لانتشار الأمراض وتكاثر الأوبئة والعدوى.

أما مصر في الحقبة العثمانية المعنية بالدراسة سوف نرى تلازماً لبعض الأمراض في سنواتٍ معينة سواء كانت أمراض ذات إرث من قديم الزمن نعني– أمراض العيون– التي وصف بها المصريين منذ قديم الزمان، أو أمراض ناجمة عن سوء التغذية وانتشار الطواعين والجفاف أو التلوث وأسبابها ومسبباتها؟ وكيف انتشرت؟ وطرق مواجهتها سواء من جانب الإدارة العثمانية أو من جانب المواطنين أنفسهم؟ كنوع من التطوع ودرء الخطر عن البلاد. كلها مجموعة تساؤلات واستفسارات غاية في الأهمية. سوف تجيب عنها الدراسة بشكل مفصل لا سيما طرق مكافحة تلك الأمراض والأوبئة، ومدى إمكانية توفير العلاج والأدوية والمؤسسات العلاجية في ضوء إمكانيات البلاد في تلك الفترة.

أنواع الأمراض والأوبئة في الحقبة العثمانية:

شهدت الحقبة العثمانية موجة من الأمراض المتنوعة التي خربت البلاد، وكذلك الأوبئة الفتاكة التي أعقبت في الغالب فترات المجاعات والغلاء، واتخذت الأمراض الوبائية عدة أشكال مثل الحمى الثلاثية والحمى الوبائية والجذام، وجذام الفيل والإلتهاب الرئوي والدوسنتاريا والفتاق والسل الرئوي وأمراض العيون التي شاعت بين المصريين.

وغالبًا ما يحلو للبعض إعتبار الوباء مصطلح يطلق على الأمراض التي تحدث بصورة سريعة وتصيب أعداد كثيرة من الأفراد وفي أعمار مختلفة. حتى أن أغلب الرحالة اعتبروا أن مصر هي الموطن الأصلي الذي ينبع منه الوباء[1].

(1) جون انتيس: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، ترجمة وتعليق – سيد الناصري – المجلس الاعلى للثقافة 1997 م ص 62.

ومن الأمراض التي تتميز بطابع الإستمرار طوال العام "مرض الجدري" الذي ينتشر مرتين في العام خاصة بين الأطفال في القاهرة والاسكندرية وكذلك مرض "الجذام" الذي ساد بين الطبقات الفقيرة نتيجة سوء التغذية[1].

وذكر ابن إياس ثلاثة أمراض قد أصابت الوالي خاير بك (923، 928هـ/1517–1522م) في بداية القرن السادس عشر، فقال "وقد تكاثرت الأقوال بأن به ثلاثة أمراض، منها فرخة جمرة ظهرت له في مشعره ، وضعف أصاب أعضائه، وهو من أنواع الفالج، ومنها كتم البول فصار الحكماء عنده كل ليلة وقد أعياهم أمره[2]. فلما اشتد عليه المرض عجز عن القيام، خاصة أن الجمرة الشديدة التي أصابته عند خروج البول والغائط قد حدث بها ورم شديد ادى الى كتم البول والغائط وهو نفس المرض الذي اصيب به سليم الاول العثماني ومات بسببه[3].

كذلك البكري ذكر أيضاً أن أمراض العظام قد انتشرت بشكل ملحوظ فقد أصيب الوالي حسين باشا "1620–1622م" بمرض شديد في عظام إحدى قدميه[4].

أما مرض الطاعون فيعد اكثر الجائحات الوبائية انتشاراً وأشدها هلاكًا للأفراد، وكان يعرف بصفات خاصة، تشير بشكل ما الى طبيعته وظروفه، مثل الإثيوبي أو

(1) ناصر احمد ابراهيم : الأزمات الاجتماعية في مصر في القرن السابع عشر، دار الافاق العربية، الطبعة الاولى، 1998 م ص 29 .

(2) محمد احمد بن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج5، ط2 ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة 19961م ، ص 478 . ويذكر ابن إياس أيضاً : أن خاير بك كان من مماليك الاشرف قايتباي وهو جركسي الجنس وابوه اسمه ملباي الجركسي وله اربعة اخوة ، واصبح من جملة المماليك السلطانية وترقى في المناصب حتى اصبح نائب حلب ، الى ان استولى سليم الاول على الشام ومصر ، فعينه سليم الاول والياً على مصر بعد يونس باشا – انظر ابن إياس : المصدر السابق ص 383–384 .

(3) ابن اياس : المصدر السابق ، ص 479 .

(4) محمد بن ابي السور البكري: النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، تحقيق عبد الرازق عيسى ، العربي للنشر ، ط1 ، 1998 ، ص 205 .

الأصفر، أو مرض النبلاء والأطفال؛ حيث عرف نوع من الطاعون في حكم مصطفى باشا "1624–1626" وصف "بالطاعون الهادئ" لأن الباشا حظر نواح النساء المرتفع المعتاد أثناء مواكب الجنازات، كما حظر من إرتداء ثياب الحداد السوداء بهدف إحتواء الذعر الذي كان الناس يشعرون به[1]. وذكر الخشاب نوع آخر من الطاعون أطلق عليه "كو" عام 1148هـ 1735م قتل الكثير من الناس، وسبب التسمية جاء نتيجة عبدًا أسودًا كان يطوف السوق عرياناً قبل أن يأتي الطاعون، وكان يكثر من قوله "كو" وسقط فجأة في بركة من النار فمات[2].

وغالباً كان الطاعون يجتاح البلاد في فصل الربيع ويشتد فترة رياح الخماسين وهي الفترة التي تستمر حوالي خمسين يوماً من إبريل حتى مايو. فذكر صاحب الدرة المصانة: أن الطاعون قد وقع في خماسين سنة 1107هـ/1695م وفتك بالكثيرين حتى وصل إلى موت عشرة أفراد في اليوم الواحد وكان من جملة ضحايا هذا الطاعون الامير إبراهيم بك ذو الفقار أمير الحاج الشريف المصري[3]. وهو ما أكده جومار من أن الطاعون من الأمراض الفتاكة التي أبتليت بها مصر بجانب الدوسنتاريا والجُدري، ويضيف إلى الأمراض الثلاثة السابقة المتفشية مرض آخر أكثر انتشاراً إذ أن ثلث السكان مصابين به، فمن بين ثلاثة أو أربعة اشخاص نادراً ما لا نجد بينهم واحداً مريضاً بعينيه، لذا انتشر المكفوفين بالمدن وأمراض الرمد والعمى، وقد نشر أطباء الحملة الفرنسية ملاحظات وأبحاث عن "رمد مصر" وعلى رأسهم الدكتور سفاريسي Savaresy في بحثه المنشور في "العشرية المصرية" La Dècade egyptienne[4].

(1) ميكل ونتر: المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة ابراهيم محمد ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001 م، ص 344.

(2) اسماعيل بن سعد الخشاب : اخبار اهل القرن الثاني عشر، تحقيق عبد العزيز جمال الدين وعماد ابو غازي ، العربي للنشر ، ط1 ، 1990 م ، ص 39.

(3) أحمد الدمرداشي : الدرة المصان تفي أخبار الكنانه ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، مجلد 28 ، 1989 م ، ص 29 .

(4) جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص247، 248.

إذن شهدت الحقبة العثمانية أنواع عديدة من الأمراض شأنها شأن الفترات السابقة، وإن كانت الفترة العثمانية قد كثرت فيها الأمراض والأوبئة بشكل ملحوظ فلا يكاد يخلو عام من الأمراض والجائحات الوبائية والطاعون لدرجة جعلت إبن إياس يتغنى فرحاً ببعض السنوات التي لم تشهد فيها مصر طواعين، فيقول "وفي يوم الاثنين 21 ربيع الآخر عام 926هـ / 1520م، وهو أول يوم في الخماسين، وكانت خماسينا مباركة لم يظهر فيها الطاعون بمصر"[1]. لذا كثرت بشكل ملحوظ نتيجة عدة أسباب تمخضت عنها هذه الأمراض التي خربت أواصر المجتمع المصري في الفترة المعنية بالدراسة.

- **أسباب الأمراض والأوبئة وأهم النماذج:**

اجتمعت عدة أسباب طبيعية وبشرية نجم عنها العديد من الأمراض والأوبئة التي ضربت أواصر المجتمع المصري وأثرت بشكل ملحوظ عليه، هذه الأسباب مجتمعة جعلت من الأمراض شبحاً هدد أفراد المجتمع وظهرت عدة نماذج مختلفة تمخضت عن هذه المسببات.

أ- الأسباب الطبيعية:

1) ظاهرة فيضان وجفاف النيل:

هذه الظاهرة تؤدي إلى خلق المجاعات وانتشار الأمراض والاوبئة، فعندما يجف النيل عن منسوبه المطلوب يحدث الشراقي ويعم الخراب وتنتشر الأمراض والطواعين وما يصاحبها من ارتفاع الأسعار وانتشار الغلاء خاصة بين السلع الغذائية مثل الحبوب وخاصة القمح. ففي أزمة عام 1601 حتى 1604م أثناء ولاية علي باش (1010-1012هـ) الموافق (1601-1603م) قد حدث قصور فيضان النيل عن الوفاء، فعم الغلاء الشديد نتيجة الشراقي وارتفعت أسعار القمح حيث بيعت وبية القمح ب 36 نصف فضة[2]. وقل الخبز في الأسواق وبين الأهالي لدرجة أن أمين الحسبة

(1) ابن إياس : المصدر السابق ، ص 331 .

(2) البكري : المصدر السابق ، ص 174 – الوبية سدس أردب.

أوقف بعض العسكر على "أفران الخبز، ليمنعوا الناس من خطف العجين من المواجير والخبز من الأسواق" على حد تعبير إبن عبد الغني[1] واستمر الإرتفاع الجنوني للأسعار في هذه الأزمة مما أدى إلى وقوع المجاعة وأعقبها الطاعون حتى قيل أن "الناس قد أكلت بعضها بعضاً من شدة الغلاء" وكان يصلى بالأزهر على ألف ميت يومياً طوال 35 يوماً[2].

ولذلك صدر بيورلدى (أمر من السلطة واجب التنفيذ) بعدم الكشف على الموتى والإسراع في دفنهم لتجنب العدوى وعدم الإحتكاك حتى إنحسر الوباء عند وفاء النيل إلى آخر مسري القبطي1640[3]. ويذكر صاحب "التحفة" أن السرقات وأعمال السلب والنهب نتيجة هبوط النيل، ولم يوف النيل (15 ذراعاً) فحدث "غاية الكرب، وحصل الغلاء، حتى بيعت وبية القمح بثلاثين نصف فضة وكثرت المناسر (اللصوص) بمصر وصاروا في كل ليلة يأخذون محلات كثيرة، واستمر ذلك حتى رحلت السكان من منازلهم، ودخلت السراق الى سوق إبن طولون فأخذوا منها ثمانية وأربعين دكاناً من سوق المغاربة ونهبوا سائر ما فيها من الأسباب والنقود"[4].

أما الرحالة جون انتيس: يؤكد أن الأوروبيين الذين سكنوا مصر لهم رأي آخر عن فيضان النيل وجفافه من حيث تسببه في عدة أمراض وخاصة الطاعون، حيث اعتبروا أن ماء نهر النيل أفضل مياه للشرب يمكن الحصول عليها من أي مكان آخر خاصة مياه الآبار والعيون، فمياه النيل صحية لأنها خفيفة وتساعد على العرق، وعذبة المذاق خاصة عندما يكون النيل مكتمل الفيضان، رغم أن المصريين يطلقون على الحَب الذي

(1) أحمد شلبي بن عبد الغني: أوضح الإشارات فيمن يتولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1978 م ، ص 128 .

(2) ابن عبد الغني : المصدر السابق ، ص 128 .

(3) يوسف الملواني (ابن الوكيل) تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك و النواب ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، 1998م ، ص 180 .

(4) نفسه : ص 181 من المعروف ان سوق ابن طولون كان سوقاً كبيراً ومركزاً تجارياً هاماً في العصر العثماني ، وكان مركزاً رئيسياً للتجار المغاربة.

يطفح على الجسم بسبب الحرارة مصطلح "حمو النيل" لأن إنتشارها يشيع بين الناس خلال موسم فيضان النيل، رغم أن ذلك نابع من تأثير الحرارة وليس الفيضان[1].

ويؤكد جون انتيس على براءة النيل من تسببه في وقوع الأمراض، فيرى أن ماء النيل لا يتعفن أبداً ولا تظهر عليه أية علامة من علامات التخمر، وهذا يمكن التأكد منه من خلال البحيرات الكثيرة التي تمتلئ به وتوجد حول القاهرة الكبرى، وكذلك من الخزانات العديدة الموجودة، وهناك وعلى الأخص في الأسكندرية والتي يخزنون فيها الماء من العام إلى العام الذي يليه. وما إن يبدأ النهر في الإنحسار تفوح منها رائحة الوحل إلى حدٍ ما لأيام قليلة ، ولكن سرعان ما تترسب العوالق الطينية، ويصبح الماء صافياً. هذه الملاحظة جعلت جون أنتيس يؤكد عدم صحة المقولة التي ترى: أن أسباب وباء الطاعون تعفن الماء الراكد الذي يتركه النيل في الحقول بعد إنتهاء الفيضان[2].

ورغم هذه الصورة الجميلة إلى حد ما التي رسمها جون أنتيس للمياه الراكدة وخفف من حدة تأثيرها. كان لجومار رأي آخر: فيرى أن المستنقعات المتخلفة في الميداين التي تغمر بالمياه لا تقل ضرراً على الصحة العامة في موسم انحسار النيل[3]. أما الخليج الذي كان يستخدم كترعة تمتلئ منها المياه اثناء الفيضان اي من أغسطس إلى أكتوبر، فكان يصبح بقية العام مجرد مستنقع شبه جاف، تفوح منه رائحة كريهة وتتجمع فيه كل قاذورات المدينة وتتكدس حتى يجرفها فيضان العام التالي، وكذلك كانت هناك بعض البرك التي تتحول في بعض الفصول إلى بحيرات حقيقية، مثال ذلك البرك التي كانت تتجمع فيها الدماء من السلخانات والمدابغ المجاورة، هذه البرك ذات المياه الراكدة، تجلب البعوض وتمتليء بالذباب في فصل الصيف[4].

---

(1) جون انتيس: المصدر السابق، ص 103، 104.

(2) جون انتيس: المصدر السابق: ص 106.

(3) جومار : المصدر السابق ، ص 249 .

(4) اندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة مدبولي ، القاهرة 1974 ، ص 58 .

2) درجة الحرارة :

يعد ارتفاع درجة الحرارة أيضاً من أهم اسباب انتشار الأمراض والأوبئة في مصر العثمانية. حيث ورد في تقرير لأحد القناصل الفرنسيين وبالتحديد في منصف القرن الثامن عشر عام 1753م يقول فيه "إن الحميات الخبيثة ترجع أسبابها إلى الحرارة الشديدة"[1]. ومات بولاية جرجا بصعيد مصر في نهاية القرن الثامن عشر على حسب تقدير محافظ الحملة الفرنسية، نحو 1500 فرد نتيجة تفشي الأمراض الناجمة عن ارتفاع الحرارة[2].

ويؤكد جومار أن الأطباء يعزو رمد مصر إلى أسباب كثيرة من أقواه الإختلاف الشديد في درجة الحرارة من الظهر الى منتصف الليل، رغم أن درجة حرارة الليل تكون منعشة جداً بل باردة بالمقارنة بحرارة النهار، فإن السكان ينامون غالباً في الهواء الطلق[3].

3) الأمطار والسيول ورياح الخماسين:

تسبب حدوث الطاعون وأمراض العيون وانتشار الآفات الحشرية والذباب عقب سقوط الأمطار تتكون المستنقعات وتنشر الأوصال الرخوة الطينية والتي تشكل بيئة صالحة لإنتشار البعوض الناقل للأمراض وتكون البرك وتكاثر البراغيث والفئران. فتعد البراغيث "وسيطاً نشطاً في نقل ميكروب الطاعون" وبصفة خاصة من الفئران إلى الإنسان، ويعد شهر ابريل افضل الشهور في تكاثر البراغيث نظراً للظروف المناخية الملائمة لظهورها وتقل عندما يحل شهر مايو حين ترتفع الحرارة وتكاد تنعدم في شهر يونيو وينحسر معها مرض الطاعون[4].

---

(1) Clement " Les Francais D.Egypt Aux*xvll et Xvll e SiecLes " Le Caire, IFao, 1960 , p168.

(2) محافظ الحملة الفرنسية بدار الوثائق القومية : محفظة رقم (6) ، ملف 9 ، وثيقة 113.

(3) جومار : المصدر السابق ، ص 92.

(4) ناصر إبراهيم : المرجع السابق ، ص 78.

وعموماً للبراغيث ثلاثة أنواع وثيقة الصلة بالصحة، وهي برغوث الإنسان وبرغوث القطط وبرغوث الكلاب، وبرغوث الفئران وهو الناقل لمرض الطاعون. حتى أن النابلسي عدد خطورة البراغيث القاتلة في إحدى قصائده[1].

أما رياح الخماسين التي تتعرض لها مصر بين شهري ابريل و يونيو دائماً ما تحمل معها واقع سيئة بين الأهالي من احتمال وقوع الطاعون أو الجائحات الوبائية، بما تحمله من رمال صفراء تعم المنازل وتحمل الأتربة الضارة التي تكون على حد تعبير ريمون تلال من الأنقاض التي نشأت على وجه الخصوص على الحافة الشرقية لمدينة القاهرة، حتى أصبحت جبالاً كريهة الرائحة، وعندما كانت تهب من جهتها الرياح في أوقات الجفاف كانت المدينة تغطى بدوامات من الأتربة الضارة، ففي 7 مايو عام 1694م هبت زوبعة بالغة العنف غطت القاهرة بموجات من الأتربة جعلت السماء مظلمة، وظن الناس أنها نهاية الدنيا[2].

لكن لا يعني ذلك أن رياح الخماسين ترتبط بها الطواعين فعندما يؤرخ ابن إياس في أكثر من موضع يذكر رياح الخماسين مثلاً في بداية القرن السادس عشر وبالتحديد في يوم الاثنين 20 صفر عام 922هـ/1516م يوم فطر النصارى وعيدهم وهو أول يوم في الخماسين، فذكر أنها "خماسين مباركة لم يظهر بها شيء من أمر الطاعون بالديار المصرية ولا بأعمالها قاطبة[3].

العوامل البشرية:

وقد تمثلت في التلوث والإهمال وسوء التغذية والحوادث والصراعات والحروب والوافدون من الخارج أو سكنى المقابر ودفن الموتى قرب الأماكن السكنية، فقد كان

---

(1) أشكوا البراغيث التي أضحى لها جسدي مباحاً
أكلوا اللحوم وخلفوا في كل جارحة جراحاً
والليل زاد تطل ولا أتراها أكلوا الصباحا
– راجع عبد الغني بن اسماعيل النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز القديم– إعداد احمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب– 1986 ص50.

(2) اندريه ريمون: المرجع السابق، ص 58.

(3) ابن إياس : المصدر السابق، ص 21.

امتداد واتساع مدينة القاهرة نحو الشرق والجنوب، سبباً في إدخال مقابر الجامع الأحمر والرويعي والأزبكية والقاصد ضمن إطار المدينة الأمر الذي خلق بالطبع مشاكل صحية، وعندما حاول الفرنسيون منع دفن الموتى وسط الأهالي لمكافحة إنتشار الأوبئة والأمراض، وجدوا في ذلك مقاومة عنيفة من الأهالي، ولم يقدر لهذه المقابر أن تزال نهائياً إلا في القرن التاسع عشر[1].

وقد سجلت محكمة إسنا الشرعية العديد من الحالات المرضية لاسيما بين الأطفال نتيجة الإهمال وسوء التغذية وانعدام النظافة وخير مثال لها الحالة الخطيرة التي كان عليها طفل لشخص يدعى عمران سليمان الاسناوي[2]. وأحياناً كانت الوفاة تأتي نتيجة الإهمال أو التعامل بدون وعي عن الأمراض والجروح، فعندما جاء إلى قاضي إسنا شخص يدعى محمد بن علي راجح وطلب منه التوجه معه للكشف على ابن عمه هريدي غالب رجب، فوجد به جرحاً بجانبه وحالته سيئة لم يندمل بعد، وسرى ذلك في باقي جسده حتى وصل إلى كعب أرجله ومات بسبب ذلك الجرح القديم[3].

ويذكر أن مرض الجذام يستشري بسبب سوء التغذية والفقر الشديد وانخفاض النيل وكذلك لنفس الاسباب الانتفاخ والفتاق، وأيضا الصراعات والاشتباكات ففي عام 1148هـ-1736م اشتبك أهالي الحسينية بالقاهره مع أهالي بولاق، هذه الاشتباكات تؤدي إلى حدوث الأزمات الاقتصادية وتغيير سعر العملة، فيذكر ريمون أن سعر أردب القمح سجل في بداية القرن الثامن عشر وبالتحديد عام 1703 م 24 باره. وصار سعره عام 1736م نحو 100 باره نتيجة شيوع القحط والمجاعات التي ادت الى وقوع الأمراض والأوبئة[4].

وهو الارتباط الذي أكد عليه الكثيرين، بين سوء التغذية والقحط والجفاف يؤدي حتما لوقوع الامراض. ويذكر "ارتفعت الاسعار وهبط النيل، ثم اعقبه طاعون عظيم دام

(1) اندريه ريمون : المرجع السابق ، ص 59

(2) محكمة إسنا ، س3 ، م65 ، ص 36 .

(3) محكمة إسنا : ش2، م13 ، ص7

(4) اندريه ريمون : المرجع السابق،. ص 282، ص 287.

من شهر ذي الحجة الى جمادي الاول سنة 1031هـ-1622م"[1]. وأيضا صرح البعض بأن "المرض الوافد 'الوباء' قد يحدث في الناس من قبل ارتفاع الأسعار وعدم الطعام" و"التغذية الرديئة هي سبب ما ترى من هياكل المتسولين الدميمة المنظر ومن مسحة الشقاء والوهن، فهم يموتون أفواجاً وجماعات"[2].

كما أن التلوث وانتشار القاذورات تعد أهم مسببات انتشار الأمراض والاوبئة، خاصة في المناطق الشعبية المكتظة بالسكان التي يتخلف عنها اكوام القمامة المتراكمة والتي تشكل بيئة مناسبة لانتشار الذباب والأمراض. ويعلل الكثيرون أن الأتراك هم السبب المباشر لانتشار التلوث والقاذورات، ويرون أن الوباء جاء بسبب قذارة الاتراك وتلوث الهواء. ولكن جون انتيس يرفض هذا الرأي فيقول "من الغبى أن نلصق بالاتراك صفة القذارة، أو أنهم شعب قذر، بل هم على العكس من ذلك خاصة الطبقة الموسرة منهم، فهي تعتني جيدا بالنظافة بشكل واضح كما ان تعاليم دينهم تحتم على ابناء العوام منهم ان يكون الى حد ما نظيفين"[3]. لكنه اكد في نفس الوقت على أن الوافدون من انحاء الدولة العثمانية الى مصر كثيرون منهم مصابون بالطاعون. وانتشر بسرعة، وأصبح شديد الوقع في بعض المناطق مثل رشيد عام 1770م وبعض الأجزاء الأخرى من مصر السفلى، لم يصل إلى القاهرة لكي يصبح وباءً عامًا. وفي العام التالي عام 1771م جلب بعض المماليك من القسطنطينية هذا الوباء واجتاح القاهرة الكبرى والصعيد[4].

وفي عام 1781م انتشر الطاعون في الإسكندرية ثم الى رشيد ومنها الى القاهرة الكبرى على أيدي بعض اليهود الذين جلبوا صندوقاً من الملابس القديمة من الأمير بتركيا حيث كان يعصف بها الطاعون بشدة في ذلك الوقت ليعرضوها للبيع في القاهرة الكبرى، وما أن فتح الصندوق عند ثلاثة مراكز للجمارك حتى اندلعت العدوى وانتشر الطاعون ليصبح وباءً عاماً خلال وقت قصير[5].

(1) ابن الوكيل : المصدر السابق، ص 172.

(2) ناصر ابراهيم : المرجع السابق، ص 21.

(3) جون انتيس : المصدر السابق ، ص 63 .

(4) نفسه ، ص 66 .

(5) نفسه ، ص 67 .

أثر الأمراض والأوبئة على أوضاع المجتمع :

اجتمعت الاسباب المتعددة سواء الطبيعية منها او البشرية لتجعل من الطاعون شبحاً مخيفاً يهدد المجتمع، ويوقع أثراً بالغاً على مناصي الحياة المختلفة. فيذكر البكري في ولاية مصطفى باشا 1032هـ/1623م مدى تأثير الوباء على الناس فيقول "وقع الوبا العظيم الذي ارعب القلوب"[1]. وأصبح كبير السن من يفوق عمره المائة عام خائفاً، لأنه وجد من مات وعمره يزيد عن السبعين، ومات زيادة عن ثلاثمائة ألف، فقام الوالي مصطفى باشا بعدة اجراءات لتخفيف الرعب عن الناس، فأبطل الصراخ على الميت ولبس السواد، حتى صار موكب الميت يمر في الشارع ولا يعلم به أحد[2]. وتؤكد المصادر أنه في زمن الطعن والطاعون عام 1107هـ/1695م، قد امتلأت الحارات والأزقة بالموت، فقام الأهالي ببناء المقابر، كما توفى إبراهيم بك زين الفقار أمير الحاج المصري، وتم تعيين مكانه أيوب بك[3].

وأعراض الطاعون شديدة التنوع تماماً مثل تأثيراته، فتبدو العدوى أكثر نشاطاً عشية إندلاعها في البلد، وقليل ممن أصيبوا بها بدا لهم أنهم قد نجوا منها في بدايتها، إذ أن بعضهم قد يبقى على قيد الحياة لمدة عشرة أو إثنى عشر يوماً قبل موته، والبعض الآخر يموت خلال ساعات قليلة، كما أن أشخاص قد يظهرون أصحاء ثم يسقطون موتى في لحظات دون أن تبدو عليهم أعراض الطاعون إلا بعد الموت. هذه الأعراض تتمثل في خراريج تحت الإبط، أو في الجزء الأملس من البطن، مع ظهور بقع قليلة قرمزية اللون أو جمرات حمراء على الساقين وعندما تنفجر الدمامل ويخرج منها كميات كبيرة من القيح، وهنا قد يكون للمريض فرصة للشفاء إذا كان جسمه قوياً بحيث يقاوم المرض بالقدر الكافي، وتتمثل هذه الحالة بالذات عندما تبدأ العدوى في الإنحسار[4].

---

(1) البكري : المصدر السابق ، ص 213 .

(2) نفسه ، ص 213 .

(3) أحمد الدمرداشي : المصدر السابق ، ص 202 .

(4) جون انتيس : المصدر السابق ، ص 68 .

ونلاحظ أن الطاعون أكثر تأثيراً من الجدري، فالشخص الذي أصيب بالطاعون مرة يمكن أن يصاب به عدة مرات أخرى فلا يكن محصناً عكس الجدري. وفي بعض الأحيان يعصف الطاعون بشدة بأحد الأحياء في المدينة، ثم يتوقف فجأة ثم يعود للإندلاع بنفس الضراوة في حي مقابل لم يصب به من قبل، وفي أحيان أخرى نجد كل أفراد البيت يموتون جراء الطاعون، وفي بيت مقابل له يموت فرد أو إثنين من بين إثنى عشر أو خمس عشر من سكانه[1].

ويؤكد جومار أنه عند إستقراء قوائم الوفيات المحررة من سنة 1798م إلى سنة 1802م نجد أن عدد السكان لا يرتفع في مطلع القرن عن 260000 نسمه، ولاحظنا ان عدد وفيات الأطفال، بالنسبة للرقم الإجمالي للوفيات يرتفع إلى أكثر من النصف، وذلك بسبب فتك الجدري بالأطفال، وأن هذا المرض مضاعفاته شرسة تجعله أكثر فتكاً في القاهرة عن أي مكان آخر، ويبلغ عدد وفيات النساء الربع و الباقي من نصيب الذكور البالغين، وهذا يعني أن عدد الوفيات في السنة الواحدة في فترة الحملة نحو 12000 نسمة[2].

وكان تأثير الأمراض وخاصة الطاعون بالغاً على الجمارك بشكلٍ واضح الأمر الذي أثر على قيمة الصادرات والواردات المصرية، بل على تجارة مصر برمتها. وهو ما لاحظه رجال الحملة الفرنسية قبل وبعد مجئ الحملة إلى مصر من خلال السجلات والتقارير التي يرفعها المديرون الفرنسيون بالجمارك، فيقول الكونت استيف – أحد رجال الحملة الفرنسية والمدير العام للموارد العامة لمصر – لكي تصبح الفكرة التي نقدمها عن تجارة مصر تامة، كان لزاماً علينا أن نقدم في جدول أخير الأرقام الدقيقة لعوائد الجمارك، بالإضافة إلى قيمة وحجم وطبيعة الواردات والصادرات التي تمت هناك خلال الاثنى عشر عاماً التي سبقت وصولنا الى هذه البلاد، وإن كان المديرون الفرنسيون الذين عيناهم في كل ديوان عقب وصولنا، لم يقدموا لنا بشكل يبعث على

(1) نفسه : ص 68 ، ص 69 .

(2) جومار : المصدر السابق . ص 246 .

الرضا، ما طالبناهم به من بيانات مستخلصة من السجلات التي كانت توضح دخول وخروج السلع خلال هذه الحقبة من الزمن. وقد أخبرنا المدير الفرنسي لجمرك الإسكندرية أن مراقبي الصحة قد أحرقوا اوراق سلفه وأوراق الجمرك كله، لان سلفه هذا قد مات إثر إصابته بالطاعون[1]، وهو ما أوجد صعوبة في إمكانية تحديد الصادر والوارد لجمرك الإسكندرية آنذاك.

وأحياناً نجد للأمراض تأثيراً على سلوكيات الحكام والأمراء. فعندما أصيب الوالي خاير بك بعدة أمراض مات بسببها – كما تقدم أنفاً – تغيرت سلوكياته إلى النقيض، فبعد أن كان حاكماً "جباراً عسوفاً سفاكاً للدماء، قتل في مدة ولايته على مصر ما لا يحصى[2] فأقعده المرض ولزم الفراش، راح يتصدق على الأطفال في الكتاتيب والفقراء والمساكين، وأعتق جميع عبيده وجواريه، وأفرج عن المساجين ممن عليهم ديون في سجني الديلم والرحبه، ولم يترك بالسجنين غير الحرامية ومن عليه دم[3].

كذلك قام من قبل الاشرف قايتباي (872–901هـ/1468–1496م) عندما وقع من على الفرس وانكسر فخذه، تصدق على الفقراء والمساكين، وأفرج عن كثير من المباشرين. أيضاً عندما أصيب السلطان الغوري (906–922هـ/1501–1516م) بمرض في عينيه، أعطف على الناس وأفرج عن المساجين وبعض المباشرين[4].

طرق العلاج ومكافحة الأمراض والأوبئة:

تعددت طرق العلاج ومكافحة الأمراض في مصر في العصر العثماني في الطب الشعبي ووصفاته مروراً بالطب الوقائي ثم المحاجر الصحية والبيمارستان وصناعة الأدوية والمراهم.

(1) استيف : وصف مصر ، ج 5 ، مكتبة الاسرة – 2002 م – ص 196 .

(2) ابن إياس: المصدر السابق ، ص 484 .

(3) نفسه : ص 480 .

(4) نفسه : ص 480 ، 481 .

أما عن **الطب الشعبي**، فكانت النظرة في البداية لوسائل العلاج والطب يعتريها الكثير من الدجل والتعاويز والخرافات. فيقال أن بقلعة صلاح الدين طلسم لكل مرض، فمثلاً مريض الحمى إذا أقام ثلاثة أيام بها وبالتحديد بجانب باب وفيق محمد أغا الحلواني قرب عامود مكتوباً عليه ثلاثة أسطر عن طلسم الحمى إذا قرأهم شفى تماماً وكذلك طلسم الطاعون منقوش على أحد الأعمدة[1]. ويروي ابن ظهيره في الفضائل الباهرة أن بعض الأطباء كانوا ينصحون المرضى تناول الفاكهة خاصة الحوامض منها وبالتحديد الليمون لإصلاح الغذاء والدواء[2]. كذلك الخيار شنبر[3] الذي نصح به الأطباء علاج السوداء والصفراء معاً ودهان للجلد ومساعدة المرأة الحامل، أيضاً أكل الأفاعي الذي يصنع منها الترياق وهو دواء للسموم[4].

وكان الدعاء وسيلة أيضاً من وسائل العلاج عند العامة إعتاد عليها الأهالي في مكان معين وهو مسجد الجيوشي[5] على حافة جبل المقطم خلف القلعة، ذلك أن الناس كانوا يعتقدون أن الدعوات المرفوعة هناك يمكن الاستجابة لها[6]. بل ذهب الطب الشعبي لأبعد من ذلك حيث اهتم بالحيوانات وشفائها من الأمراض شأنها في ذلك شأن الإنسان، فقد شاع الإعتقاد بين بعض سكان جزيرة الروضة ان شفاء الحيوانات والدواب يتم من خلال أخذ بعض الأتربة من ضريح بعض الأولياء وهو الشيخ محمد الحوياتي، ثم تنثر هذه الأتربة فوق الدواب فتبرأ في الحال[7].

---

(1) اوليا جلبي : المصدر السابق ، ص 246 .

(2) ابن ظهيره : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق محمد السقا وكامل المهندس، دار الكتب ،1969م ، ص 201.

(3) خيار الشنبر: شجرة تشبه شجر الخوخ والخروب.

(4) ابن ظهيره : المصدر السابق ص 134.

(5) جامع الجيوشي: بناه أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله في عام 498 هـ- 1108م، وهو في الأصل زاوية صغيرة تقع على جبل المقطم. انظر كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987، ص 628.

(6) ميكل ونتر : المرجع السابق ، ص 345 .

(7) النابلسي : المصدر السابق ، ص 256 .

أما **الطب الوقائي:** فهو يمثل خطوة إيجابية لوسائل وطرق العلاج المقبولة بعيداً عن الطب الشعبي أو الوصفات التي صنف أغلبها بأنها درب من دروب الخرافات والإتكالية غير المقبولة. فكانت أولى خطوات الطب الوقائي العزل سواء كان هذا العزل للمرضى أو الأصحاء وذلك للحد من انتقال الأمراض والحيلولة دون انتشاره بين عدد أكبر بين الناس، لأن انتشار الأمراض والأوبئة والطواعين يجد أرضاً خصبة في الإختلاط بين الأهالي، لذا يعد العزل الصارم من أهم الأساليب التي تمكن الإنسان من تجنب الهلاك من جراء الأمراض الوبائية الفتاكة.

وعندما تحدث جون أنتيس عن العزل ومدى نجاحه في تجنب الأمراض وانتشارها، فيرى أن اتباع الأوربيين للعزل خاصة في تركيا لقرون طويلة ثاثبت نجاحه، ولتحقيق العزل الكامل يجب إتباع الإجراءات التالية: أن يحرص المرء ألا يختلط كثيراً بالجماهير، وبالذات الطبقات الدنيا من الناس، خاصة أن اكتشاف الامراض والطواعين في القاهرة الكبرى أسهل بكثير من اكتشافها في أغلب اجزاء تركيا خاصة ان معظم هذه الامراض تأتي لمصر من أزمير أو القسطنطينية أو غيرها فتحصل أولاً إلى الإسكندرية أو دمياط و منها تنتشر بدرجات متفاوتة في القاهرة ، وعندما تبدأ العدوى في الانتشار يجب تجنب مخالطة الناس الآخرين، ولكي يحقق الانسان ذلك بكفاءة عليه غلق البيوت ولا يسمح لأحد بدخولها حتى ينتهي الوباء[1].

في حين يذكر الرحالة ويليام دانيال William Daniel في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، أن الإفرنج القاطنين في مصر آنذاك كانوا يرتعدون من الأمراض والأوبئة ويلجأون إلى عدة اجراءات وقائية، فيعتزلون المجتمع داخل حاراتهم لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، ويقومون بتخزين الأغذية وإغلاق الأبواب عليهم ومحاشاة الخروج أو ممارسة حياتهم العادية، ويقتصر الترفيه عندهم على التنزه فوق أسطح منازلهم ولعب الورق[2]. وهذا ما أكده أيضاً جومار أن الأمراض المخيفة التي تسبب كوارث لا يفلت منها فقط إلا الفرنج عن طريق الإعتزال المطلق[3].

(1) جون انتيس : المصدر السابق ، ص 60 .

(2) William Daniel : Voyage En Egypte, pardant les Annees 1678-1701-I.F.A.0.1981 , P 242.

(3) جومار : المصدر السابق ، ص 92 .

وقد أقام الفرنسيون في الجزيرة الواقعة شمال جزيرة بولاق، محجراً صحياً لاستكمال النظام الصحي الذي رتب في الاسكندرية من قبل، بذلك تكون الحملة الفرنسية من أوائل من طبق الحجر الصحي في مصر ، وقد اعتبروا ذلك تطور ضروري لسلامة البلاد للقضاء على الاتكالية المبالغ فيها لدى كثير من المصريين وقتئذ[1].

أيضاً من صور الطب الوقائي إستخدام الندى للشفاء من مرض الطاعون الذي ينتشر في شهر يونيو، حيث ينقي الهواء الموبوء مع فيضان النيل، فالندى وفيضان النيل يعملان معاً على إنقطاع الطاعون تماماً. بجانب عوامل طبيعية أخرة مثل الحرارة الشديدة والرياح الموسمية الشمالية التي تلطف الهواء وتنقيه وكذلك كميات العرق والرشح[2]. كل هذه العوامل مجتمعة تقضي نهائياً على مرض الطاعون الذي يضرب مصر خاصة في شهر يونيو.

أما **المؤسسات العلاجية** وما ارتبط بها من صناعة الأدوية والمراهم في الحقبة العثمانية لم تكن بالقدر الكافي لإستيعاب المرضة مقارنة بالعصر المملوكي الذي شهد مؤسسات علاجية عظيمة مثل مارستان قلاوون[3]، ومارستان المؤيد[4] الذي تحول إلى أنقاض في العصر العثماني. لكن استمر البيمارستان المنصوري وقدر له أن يبقى كأكبر مؤسسة علاجية في الحِقبة العثمانية، وقد وصفه أوليا جلبي اثناء زيارته عام 1083هـ/1670م وقال عنه "مستشفى عظيم ... وبناء لا نظير له في بلاد الترك (الروم) والعرب والعجم ... مفروش برخام، وضم البيمارستان حوض كبير للماء ومصلى، وأربع قاعات كبيرة تتسع لألف رجل، بجانب أروقه منقوشه بعقود من الجير

(1) جومار : المصدر السابق ، ص 92 .

(2) ناصر ابراهيم : المرجع السابق ، ص 42 ، ص 43 .

(3) مارستان قلاوون: هو البيمارستان المنصوري الكبير وكلمة مارستان كلمة فارسية تعني مستشفى، وقد أنشأه السلطان المملوكي المنصور قلاوون بخط بين القصرين عام 683 هـ/1284م. انظر: المقريزي: الخطط المقريزية ج 4 مكتبة الأداب، 1996م، ص259.

(4) مارستان المؤيد: أنشأه المؤيد شيخ الجركسى عام823 هـ/1420م. انظر المقريزى: المصدر السابق ص 263.

ينام فيها المرضى العاديين، أما المرضى المجانين فينامون في حجرات مكشوفة ذات أحواض من الماء ومقيدين بالسلاسل حيث بلغ عدد المرضى داخل البيمارستان وقت زيارة أوليا جلبي نحو 306 مريض ومجنون[1].

وقد ضمت مستشفى قلاوون قسم للمرض النساء ايضاً بجانب قسم الرجال، وكان يشرف عليهم النساء فقط ما عدا الأطباء كانوا رجال في مختلف التخصصات فهناك الطبيب العادي[2]. والطبيب المتخصص مثل أخصائي العيون وهي أكثر الأمراض إنتشاراً في مصر– كما سبق الذكر– وقد أطلقت الوثائق على طبيب العيون لقب "الكحال"[3]، وكان كبيرهم من الأطباء يسمى يسمى "شيخ الكحالين"[4]. أو لقب "نقيب"، ويتم اختيار شيخ التخصص الطبي أو النقيب وفقاً لعدة شروط كأن يكون من أهل الدين والعفة والإستقامة، مرجعاً في تخصصه، يترفق بالمرضى ويحافظ على الأدوات الطبية والأدوية المتعلقة بتخصصه ومن فقد هذه الشروط أو بعضاً منها اجتمع الأطباء على عزله وتعيين من يصلح مكانه[5]. كما كان أيضاً شيخ الجراحين وشيخ الأطباء في البيمارستان، هذه الوظائف جميعها كان يتولاها أكفاء الأطباء. فقد أصبح زين العابدين عبد المعطي بن جمال الدين يوسف شيخ طائف الجراحين بالبيمارستان المنصوري في 9 ذي القعدة 1044هـ/1634م[6]. ومن جملة الجراحين في نفس البيمارستان رمضان بن علي بن حسن ومحمد بن علي بن محمد المولي وعلي بن أحمد الذي عمل طبيباً جراحاً وتاجراً في نفس الوقت[7] وهو نفس حال النوري علي بن شهاب الدين الزفتاوي كان جراحاً في البيمارستان المنصوري في بداية القرن السابع

(1) اوليا جلبي: المصدر السابق ، ص 347 .

(2) محكمة القسمة العسكرية : س 27 ، م 22 ، ص 10 بتاريخ (ذي القعدة 1015هـ / 1606م) .

(3) محكمة الباب العالي : س 86 ، م 459 ، ص 67 بتاريخ (شوال 1015 هـ / 1606 م) .

(4) محكمة الباب العالي : س 55 ، م 447 ، ص 55 بتاريخ (شعبان 1058 هـ / 1648 م) .

(5) ناصر عبد الله عثمان: الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، دار الكتب والوثائق المصرية، سلسلة مصر النهضة، 1206 هـ ، ص 307.

(6) دشت 152، ص 381 ، بتاريخ 1044 هـ / 1634 م .

(7) دشت 117 ، ص 125 ، بتاريخ 2 ربيع الثاني 1010 هـ / 1599 م وكذلك : دشت 156 ، ص 139 ، بتاريخ محرم 1048 هـ / 1638 م .

عشر الميلادي وفي نفس الوقت تولى وظيفة الإشراف على خدام القبة بالمدرسة الأشرفية وقت العصر المنسوبة للسلطان المملوكي الأشرف بارسباي مقابل حصوله على21 وثلث نصف فضه نقداً، ومن الخبز في كل يوم رغيف ونصف من الخبز عيناً[1].

وبمرور الوقت أصبح النوري شهاب الدين الزفتاوي شيخ طائفة الجراحين وصدر له بيورلدى (أمر شريف) بذلك في آخر صفر 1058هـ/1647م من والي مصر محمد باشا جاء فيه "يكون فخر الجراحين النوري نور الدين علي بن الشيخ شهاب الدين احمد الزفتاوي الجراح في وظيفة المشيخة على طائفة الجراحين أولاد العرب بالبيمارستان المنصوري والقاهرة ومصر القديمة وبولاق وضواحيها وكل من حمل المرهمدان (المراهم) والمجبرين من اولاد العرب يبقى في وظيفته، وأن شيخ الجراحين بالبيمارستان المذكور هو الذي يتكلم عن طائفة المجبرين وكل من حمل المراهمدان من أولاد العرب بمصر القديمة و القاهرة وبولاق وضواحيهما[2]، وهو ما يؤكد الإهتمام من جانب الإدارة العثمانية بشئون المرضى ورعايتهم، فلم يكن حرص الإدارة ظاهراً فقط في حالة نور الدين الزفتاوي، فقد أكدت الوثائق عدة حالات سابقة من جانب الإدارة لتقديم الدعم والرعاية للمرضى، فقد أوردت من جانبها عدة خطابات ومراسلات إلى القضاة والنواب في القاهرة ومصر القديمة وبولاق تحث فيها هؤلاء المسئولين على ضرورة الاهتمام بالمرض وتقديم الرعاية اللازمة لهم[3].

وارتبطت عدة وظائف أخرى بالبيمارستان المنصوري لضمان خدمة المرضى به، فهناك الفراشين مثل سابق بن عبد الله القلقشندي[4]. وصالح بن محمد الكركري[5].

(1) دشت 117 ، ص 125 ، بتاريخ 2 ربيع الثاني 1010 هـ / 1599 م وكذلك : دشت 156 ، ص 139 ، بتاريخ محرم 1048 هـ / 1638 م .

(2) محكمة الباب العالي: س 87 ، م 247 ، ص 61 بتاريخ 28 ربيع الاول 1016 هـ / 1605 م.

(3) محكمة الباب العالي : س 125 ، م 1398 ، ص 426 .

(4) محكمة الصالحية النجمية : س 493 ، ص 23 بتاريخ محرم 1034 هـ / 1625 م .

(5) محكمة الباب العالي: س 129، م 399، ص 105 بتاريخ جمادي الثاني 1061 هـ / 1651م.

والصرافين مثل قدري بن حسين وعثمان بن علي من طائفة المتفرقه بمصر العثمانية[1] لضبط التلاعب في أوزان النقد وقيمة العملة وزيف النقود والأحوال المالية داخل البيمارستان المنصوري والأوقاف المربوطة له. أيضاً من الوظائف المالية داخل البيمارستان الشادا والمشد لمساعدة الجابي الذي يقوم بتحصيل ربع الوقف ومحاصيله وغلاله ومطالبة مستأجري الموقوفات بالإيجارات، فكان الشاد يتعاطى مصالح الوقف ويسافر في مصالح الوقف لجهاته الموقوفه لإحضار الغلال[2]. ومن أبرز من تولى وظيفة الشاد بالبيمارستان الأمير عثمان بن عبد الله من أمراء المتفرقه "إحدى الفرق الثمانية العسكرية بمصر العثمانية" في 23 ذي الحجة 1030هـ/1621م[3].

فالأوقاف المربوطة لحساب البيمارستان المنصوري كانت عديدة وفي أماكن متفرقة بمصر، لضمان الإنفاق على البيمارستان والمرضى ورعايتهم وصناعة الأدوية داخل البيمارستان نفسه. ويدير هذه الأوقاف "ناظر الوقف" وهو بمثابة المشرف العام عليه ومراقبة الحالة المعمارية للأوقاف وجبايه ريع الوقف، وصرف المبالغ على البيمارستان، وكان المتحدث باسم الوقف "صاحب الوقف" سواء لدى ولاة الأمور من حكام وقضاة، أو مستأجري عقارات وأطيان الوقف[4]. مثلما فعل أصل الدين أصيل ناظر أوقاف البيمارستان المنصور منذ عام 942هـ/1536م ، حيث قام بتأجير فرن ضمن أوقاف البيمارستان لشخص يدعى عمر بن حجازي الفران بباب الزهومة بالقاهرة، إيجار لمدة عام كامل مقابل مبلغ عشرين نصفه فضه سليمانية[5]. كما أجر الأمير محمد أغا ناظر أوقاف البيمارستان المنصوري في 1011هـ/1600م حانوت بسوق الجواهره قرب خان الخليلي وحانوتين بالصاغة للشهابي أحمد بن عبد الله من ضمن أوقاف

(1) دشت 119 ، ص 581 لسنة 1012 هـ / 1601 م .

(2) محمد عفيفي : الأوقاف و الحياة الإقتصادية في مصر في العصر العثماني ، تاريخ المصريين رقم 44 الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1991 م ، ص 99 .

(3) دشت 141 ، ص 355 ، لسنة 1030 هـ / 1621 م .

(4) محمد عفيفي : المرجع السابق ، ص 87 .

(5) دشت 16 ، ص 355 لسنة 942 هـ / 1536 م .

البيمارستان[1]. الذي تعددت أوقافه في الصاغة وسوق الصاغة والغورية، وخط بين القصرين بسوق النحاس ومصر القديمة ووكالة العسل وجامع الصالح وخط الباسطية قرب جامع الفكهاني[2].

تعدد أوقاف البيمارستان المنصوري ضمنت له البقاء كمؤسسة علاجية تقدم خدمات للمرضى ومستلزماتهم ودفع مرتبات الاطباء والموظفين والخدم بالبيمارستان، فكان شهاب الدين احمد بن منصور يتحصل على راتب شهري ثلاثون نصف فضه مقابل طبخ الادهان بالبيمارستان[3]. أما صناعة الأدوية داخل البيمارستان المنصوري لاسيما "الترياق" أو ترياق الفاروق، حيث كانت مصر مشهورة بإنتاج أنواع الترياق، وهي أدوية مضادة للسموم تصنع عن طريق استخلاص السم من الثعابين خاصة الأفاعي، وقد تخصص أفراد قبيلة بني خبير العربية الذين كانوا يسكنون في منطقة الجيزة، في هذه المهمة، وكانوا يرتدون ملابس خاصة للوقاية حين يؤدون عملهم[4].

ويذكر أوليا جلبي أن الترياق الذي يضع في مستشفى قلاوون لم يكن قاصراً على علاج السموم فقط، بل يستعمل دواء لمائة وستة وسبعين مرض ويتكون من 66 عقاراً مستخلص من ثعابين الحيات التي يتم اصطيادها من مناطق البهنسا ببني سويف والفيوم، والجبل الأخضر وإحضارها الى المستشفى ليتم عمل الدواء منها على يد

(1) دشت 18 ، وثيقة ص 145 مؤرخة في 10 جمادي الاول 1011 هـ / 1600 م – ووثيقة ص 155 مؤرخة في 24 رجب 1011 هـ / 1600 م .

(2) محكمة الباب العالي: س 126، م 463، ص 148، كذلك: محكمة مصر القديمة: س 99، م 752، ص 234 – أيضاً : دشت 170، ص 257 وثيقة مؤرخة بتاريخ 8 جمادي الآخر 1062 هـ/1652م، كذلك الديوان العالي: سجل رقم (1) لسنة 1154هـ/1741م – وثيقة 98 .

(3) محكمة الباب العالي : س 87 ، م 896 ، ص 211 (6 جمادي الاول 1016 هـ / 1605 م) – كما ذكر قانون " نامه مصر " الذي اصدره السلطان سليمان القانوني لحكم مصر في باب احوال الاوقاف انه " قد صدر الأمر بإرسال أموال ولاية الأوقاف ونظارتها للصرف و تعمير وترميم البيمارستان ... " انظر : قانون نامه مصر ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1986 م .

(4) مايكل ونتر : المرجع السابق ، ص 349 .

الاطباء ورئيسهم (حكيمباشي) وقد شاهد بنفسه عمل الترياق وذكر صناعته بالتفصيل داخل المستشفى المنصوري[1].

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد عام 1798م زمن الحملة الفرنسية بدأ أفول نجم البيمارستان المنصوري هذه المؤسسة العلاجية العتيدة آنذاك، فيقول جومار أنه قد "أصبح هذا البناء الشهير، الذي كان فيما مضى من الأيام ملجأ مفتوحاً من الشدائد، بعيداً تماماً عن ازدهار الأول أو بعبارة أخرى كاد لا يبقى منه غير ظله بسبب تهاون وإهمال الأتراك والمماليك، وعلى الأخص بسبب الإسراف في تبديل أمواله. وعندما زرته كان عدد المرضى به بخلاف المعتوهين ما بين 50 الى 60 مريض كانوا يشغلون قاعات الدور الأرضي مفتوحة للهواء وبدون أسِرة أو منقولات. أما المعتوهين فكانوا يشغلون جزءاً بخر من المبنى مقسم غلى حوشين كل حوش مخصص لأحد الجنسين . وكان عدد المجانين 10 محبوسين في حجرة[2].

وكانت هناك ثمة محاولة من جانب رجال الحملة الفرنسية لإصلاح البيمارستان المنصوري بعدما أمسى إلى هذه الحالة التي يُرثى لها، فقد أمر الجنرال الفرنسي رئيس الأطباء بزيارة المارستان وذهب لهذا الغرض دسجينت M. Desgenette بصحبة الشيخ عبد الله الشرقاوي "أحد مشايخ الأزهر الشريف وضمن التسعة الذين اختارهم نابليون ليكون منهم الديوان". وقدم عنه تقرير بهدف إصلاحه وتحسينه، وجاء في التقرير: أن البيمارستان به 27 مريض و 14 معتوهاً ومن بين المرضى يوجد العديد من العميان وعدد أكبر مصاب بالسرطان. وجميعهم لا تقدم لهم أية إسعافات سوى توزيع الغذاء المكون من الخبز والأرز والعدس، ولا يعرفون أبسط أنواع الدواء[3]. وقد ظل البيمارستان على هذه الحالة يؤدي وظيفته الى سنة 1856م، وأقامت وزارة الأوقاف في سنة 1915 مكانه مستشفى لمعالجة أمراض العيون لا تزال باقية حتى الآن[4].

(1) اولبا جلبي : المصدر السابق ، ص 349 ، ص 360 .

(2) جومار : المصدر السابق ، ص 197 .

(3) نفسه : ص 198 .

(4) كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1987م،ص39.

وفيما عدا مارستان قلاوون وجدت بعض التكايات "تكية" لكنها ليست على نفس مكانة المارستان، فكانت مجرد صوامع للدراويش مثل تكية عبد الرحمن الكخيا بالقاهرة ضمت 26 امرأة مريضه وتكية الحبانية بشارع الحبانية، وهناك تكية أكثر أهمية تقع في شارع الصليبة الكبير أنشأها السلطان الظاهر بيبرس يطلق عليها "تكية العجم" ملاصقة لجامع العجم ضمت 16 مريضاً[1]. وتذكر الوثائق وجود عدة بيمارستانات في منطقة مصر القديمة عام 1074هـ/1663م، كانت تستقبل جميع عناصر السكان بالمنطقة بما فيهم النصارى الأروام الذين أخذوا تفويض بذلك بموجب البيورلدات الشريفة[2].

وفي كنيسة ماري جرجس كان يقطن بها بعض القساوسة اليونانيين Prestres Grecs وبعض الجنسيات الأخرى مثل الأتراك والمغاربة والعرب، كل هؤلاء كانوا بمثابة مستشفى لعلاج وإسكان الفقراء أكثر منها كمعبد[3].

والعلاج داخل الكنائس والأديرة لم يقتصر فقط على النصارى الأقباط بل شمل المسلمين أيضاً، فدير البنات الموجود بقصر الشمع بمصر القديمة به عدة أماكن قد خصصت لشفاء المرضى، وكانت الرئيسة هيلانة ابنة الذمي منصور هي المسئولة عن أمر الشفاء والتداوي داخل الدير، فتسجل الوثائق وجود زوجة يوسف النجار داخل الدير بهدف الشفاء من التوعك الذي أصابها في 26 محرم 1083هـ/1672م، فقضت عدة أيام داخل الدير سلمت ما معها أمتعة على سبيل الأمانة، تحصل عليها بعد إتمام الشفاء[4].

والجدير بالذكر أن البيمارستان لم تكن قاصرة فقط على القاهرة. فلم تحرم بعض الأقاليم الكبرى من وجود تلك المؤسسات العلاجية التي اكتمل عدد العاملين بها من الأطباء. وكان يرأسها كبير الأطباء الذي يشرف على النواحي الطبية داخل البيمارستان

(1) جومار : المصدر السابق ، ص 199 .

(2) محكمة مصر القديمة : س 102 ، م 1847 ، ص 698 .

(3) Henry Castela : Voyage de " 1500-1501 " A paris , P159

(4) محكمة مصر القديمة : س 104 ، م 615 ، ص 217 .

وتصنيع الأدوية للمرضى مثل مدينة الإسكندرية كنموذج[1]. حيث كان ميناء الإسكندرية محطة تجارية هامة لإستقبال العديد من السلع الواردة من خارج مصر، نخص بالذكر هنا الأدوية والعقاقير الطبية المختلفة والصوفان (اسفنج طبي) من تركيا "بلاد السلطان العثماني" وكذلك الفاصور والفوة والقتيب والخولان، كلها عقاقير طبية إما مطهر للأذن قادم من تركيا وبلاد البربر إلى مدينة الإسكندرية والسويس[2]. وأما جمرك ميناء مصر القديمة فكان يستقبل أيضاً بعض العقاقير الطبية لاسيما الششم وهو حبوب سوداء تشبه حبة العدس الجافة كان يرد من سنار ودارفور وفزان بالسودان[3].

- **خاتمة:**

هكذا رأينا العديد من أنواع الأمراض التي انتشرت في الحقبة العثمانية سواء من كان منها متوطن أو ممن تفشى بشكل فج في المجتمع نتيجة ظروف ساعدت على ذلك سواء كانت تلك الظروف نابعة من سلوك المجتمع وأفراده "عوامل بشرية" أو عوامل طبيعية نابعة من الموقع أو المناخ أو الكوارث الطبيعية.

كذلك أظهرت الدراسة مدى التأثير البالغ للأمراض والأوبئة على النواحي الإقتصادية خاصة الصادرات والواردات، وكذلك النواحي السياسية وسلوكيات الحكام، فرأينا كيف عدل خاير بيك عن مسلك التعسف الى التصدق والعطف على المساكين والإفراج عن المساجين، مثلما فعل من قبله السلطان قايتباي والغوري. ناهيك عن التأثيرات البالغة على القوى البشرية وهلاك الكثير من سكان مصر جواء الجائحات الفتاكة التي ضربت البلاد في سنوات الطواعين المتلاحقة.

---

(1) ناصر عثمان : المرجع السابق ، ص 307 .

(2) استيف : وصف مصر ، ج 5 النظام المالي و الاداري في مصر العثمانية ، مكتبة الاسرة .

(3) نفس المصدر : ص 124 – ومن الهند وردت عدة عقاقير طبية هامة مثل الكاشو وهو منشط للمعدة و مستخرج من السنط الهندي ، أيضاً عقار التربول و التخيوي والبتار : انظر : جيرار : وصف مصر – ج4 ، ص 341 ، اما معظم المراهم فكانت تأتي من الجزيرة العربية خاصة مكة إلى جمرك السويس وكانت تقدر بالقنطار و كان لكل قنطار رسوم جمركية بـ165 مديني : انظر : استيف : وصف مصر ، ج 5 ، ص 148.

على أن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة عدة ألوان وطرق لعلاج الأمراض ومكافحتها إما عن طريق الطب الشعبي أو عن طريق الطب الوقائي بالعزل وصناعة الدواء وبناء المؤسسات العلاجية "البيمارستانات" ورأينا كيف لعب البيمارستان المنصوري دوره على أكمل وجه كمؤسسة علاجية بجانب صناعة الأدوية خاصة الترياق في آنٍ واحد. سواء كانت هذه المؤسسات داخل القاهرة أو خارجها.

- **مصادر ومراجع الدراسة:**

أولاً : الوثائق غير المنشورة " 23 سجل من سجلات المحاكم الشرعية "

أ- سجلات المحاكم الشرعية :-

1- محكمة الباب العالي : سجل 55 – سجل 86 – سجل 87 – سجل 125 – سجل 126 – سجل 129 .

2- محكمة مصر القديمة : سجل 99 – سجل 102 – سجل 104 .

3- محكمة القسمة العسكرية : سجل 27 .

4- محكمة الصالحية النجمية : سجل 493 .

5- محكمة إسنا : سجل 2 – سجل 3 .

6- سجلات محاكم الدشت : سجل 16 – سجل 18 – سجل 117 – سجل 119 سجل 141 – سجل 142 – سجل 143 – سجل 152 – سجل 156 – سجل 170 .

7- محافظ الحملة الفرنسية بدار الوثائق القومية " وثائق فرنسية " : محفظة رقم (6) – ملف 9 – وثيقة 113 .

ب- سجلات الديوان العالي :

دفتر ديوان عالي رقم (1) للسنوات 1154 هـ / 1741 إلى 1156 هـ / 1743 م .

ثانياً : الوثائق المنشورة :

قانون نامه مصر : ترجمة أحمد فؤاد متولي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1986 م .

ثالثاً : المصادر العربية و المترجمة :

1- ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج 5 ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، 1961 م .

2- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر و القاهرة ، تحقيق مصطفى السقا و كامل المهندس ، دار الكتب ، 1969 م .

3- أحمد شلبي بن عبد الغني : أوضح بالإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات . تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، 1978م.

4- أحمد كتخذا عزبان الدمرداشي : الدرة المصانة في أخبار الكنانه ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، 1989 م .

5- إسماعيل الخشاب : أخبار أهل القرن الثاني عشر "تاريخ المماليك في القاهرة " تحقيق عبد العزيز جمال الدين وعماد أبو غازي، العربي للنشر، ط 1 ، 1990 م .

6- استيف : النظام المالي و الإداري في مصر العثمانية – وصف مصر ، ج 5 ، ط 1 ، مكتبة الأسرة 1979 .

7- أوليا جلبي : سياحتنامه مصر ، ترجمة محمد علي عوني ، تحقيق عبد الوهاب عزام ، أحمد السعيد سليمان ، دار الكتب و الوثائق القومية ، 2003 م .

8- تقى الدين أحمد بن علي المقريزي : المواعظ و الإعتبار في ذكر الخطط و الآثار ، ج 4 ، مكتبة الأداب ، 1996 م .

9- جون انتيس : مذكرات رحاله عن المصريين في الربع الأخير من ق 18 (1770 – 1792 م) ترجمة سيد الناصري ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1997 م .

10- جومار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة أيمن فؤاد سيد ، مكتبة الخانجي ، 1998 م .

11- جيرار : وصف مصر، ج 5 ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الاسرة ، 2002 م .

12- عبد الغني بن اسماعيل النابلسي : الحقيقة و المجاز في الرحلة إلى بلاد الشام و مصر و الحجاز ، تحقيق أحمد عبد المجيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 م .

13- محمد بن ابي السرور البكري : النزهة الزهية في ذكر أخبار مصر و القاهرة المعزية ، تحقيق عبد الرازق عيسى ، العربي للنشر و الطبع ، ط 1 ، 1998 م .

14- يوسف بن الوكيل الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن .

رابعاً : المصادر و المراجع الأجنبية :

1- Clement “ Les Francais D.Egypte Aux XVII et XVIII sierlos . le Cairo . I.F.A.O - 1950 .

2- Henry Castela : Voyage de “ 1600-1601” A Paris .

3- William Daniel : Voyage En Egypte, prdant les Annees 1678-1701 - I.F.A.O - 1981 .

خامساً : المراجع العربية و المعربة :

1- اندريه ريمون : فصول من التاريخ الإجتماعي للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1974 م .

2- ميكل ونتر : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني ، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2001 م .

3- محمد عفيفي : الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ، تاريخ المصريين – عدد 44 – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1991 م .

4- ناصر عبد الله عثمان : الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر ، دار الكتب والوثائق المصرية ، سلسلة مصر النهضة ، 2006 م .

5- ناصر أحمد إبراهيم : الأزمات الإجتماعية في مصر في القرن السابع عشر ، دار الآفاق العربية ، ط 1 ، 1998 م .

6- كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية في مصر ، ط1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1987.